مع تشبيه نساء أهل الجنة في القرآن الكريم

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، الذي بشر المؤمنين بالجنة دار النعيم المقيم، وعلى آله وأزواجه أمهات المؤمنين، وعلى الصحابة والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد:



أ.د. سلامة جمعة داود(*)

فهذا المقال يتناول تشبيهات نساء أهل الجنة في القرآن الكريم، راجيًا التوفيق في الوقوف على شيء من أسرار الكتاب العزيز، وقد خص القرآن الكريم نساء أهل الجنة بثلاثة تشبيهات، وهي على ترتيب المصحف:

١- قوله تعالى في سورة الصافات: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ (٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾

(الصافات: ٤٨، ٤٩)

٢- قوله تعالى في سورة الرحمن: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ (٥٦) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧) كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ (٥٨) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

(الرحمن: ٥٦ - ٥٩)

٣- قوله تعالى في سورة الواقعة: ﴿وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ﴾

(الواقعة: ٢٢، ٢٣)

التشبيه الأول: في سورة الصافات، وسياقه قوله -جل جلاله- في شأن عباد الله الْمُخْلَصِينَ: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ (٤٠) أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ (٤١) فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ (٤٢) فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ (٤٣) عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ (٤٤) يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (٤٥) بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ (٤٦) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ (٤٧) وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ (٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ (٤٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ (الصافات: ٤٠ - ٥٠)، ثم عقب تعالى على هذا النعيم المقيم بقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (٦٠) لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ (الصافات: ٦٠، ٦١) فجعلت

(*) رئيس قطاع المعاهد الأزهرية.

الآياتُ. نعيم عباد الله المخلصين مُكْتَنفًا بين فضل الله تعالى أولًا وعملِهم آخرًا، فضله في ذكر إكرامه لهم في قوله تعالى: ﴿فَوَٰكِهُۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾ (الصافات: ٤٢)، وعملهم المذكور في قوله تعالى: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾؛ حتى لا يتكل أحد على فضل الله تعالى ويقعد عن العمل؛ فإنما الفضل مع العمل؛ ولذا ورد مع التشبيه هنا ذكر إكرامه تعالى لهؤلاء المخلَصِين فقال تعالى: ﴿فَوَٰكِهُۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾، ولم يذكر هذا الإكرام مع أيٍّ من التشبيهين الآخرين.

المشبه في سورة الصافات نساء أهل الجنة المَكْنِي عنهم بـ ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ أي قاصرات نظرهن على أزواجهن فلا ينظرن إلى غيرهم، وكنى عنهن بأنهن ﴿عِينٌ﴾ أي نجلاوات العيون واسعاتها مع شدة جمالها، وهذا من سيما الحسن في المرأة. ووصفهن بـ ﴿عِينٌ﴾ بعد وصفهن بـ ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ احتراس من أن يتوهم أن قصرهن الطرف على غير أزواجهن لضَعْفٍ أو فتورٍ في عيونهن، بل لفرط حيائهن وعفتهن ووفور أدبهن، وذلك ما يطمح إليه الرجل الصالح في المرأة أن تكون ذات عفة وجمال، والعفة مُقدَّمة على الجمال لتقديم وصفهن بـ ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ على وصفهن بـ ﴿عِينٌ﴾، وكأن نكد الرجل – وإن كان في الجنة – أن تَمُدَّ زوجُه عينيها إلى سواه. والاحتراس بـ ﴿عِينٌ﴾ لم يأت في تشبيه سورة الرحمن: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ۝٥٦ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٧ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ (الرحمن: ٥٦ – ٥٨)؛ لأن تشبيه سورة الصافات يركز على وصفهن بالحياء مع الجمال، وتشبيه سورة الرحمن يُرَكِّزُ على وصفهن بالحياء مع البكارة؛ فناسب الأول ذكر سعة العيون، وناسب الثاني ذِكْرُ بكارتهن وذِكْرُ الفُرُش التي بطائنها من إستبرق ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ (الرحمن: ٥٤)؛ ووصفهن بالبكارة مما يناسب ذكر الفراش، وهذا لم يذكر في تشبيه سورة الصافات، وكأن كل تشبيه منهما يصف صورة من هذا النعيم، أو حالًا من أحوال أهل الجنة مع الحور العين، ففي الصافات حال المؤانسة والمسرة بالنظر إلى الحور العين دون أن يتعدى ذلك إلى كونهن على الفرش مُهَيَّآتٍ لتَمَتُّع أزواجِهن بهن؛ ولذا ذُكِرَ في سياقه أن عباد الله المخلصين ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ (الصافات: ٤٤) ثم قال سبحانه: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ (الصافات: ٥٠) أي يتجاذبون أطراف الحديث أُنسًا وسمرًا وسرورًا، وهذا حال لا يلائمه ذكر الطمث، بخلاف سورة الرحمن؛ فإن ذكر الفرش التي بطائنها من إستبرق ووصف الحور بأنهن لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان، كله يصف مزيد تهيئتهن ليتنعم بهن «من خاف مقام ربه».

والمشبه به البَيْضُ المكنون، والبَيْضُ جمع بَيْضَة، والمكنون المصون الذي لم تمسه الأيدي، ووجه الشبه بين النساء والبيض المكنون الصفاء والنقاء وحُسن الرونق، وفي إيثار تشبيههن بالبيض المكنون مناسبة؛ لأن التشبيه قائم على وصفهن بالعفة والحياء مع الجمال والحسن، وفي البيض معنى الجمال والحسن، وفي ﴿مَّكْنُونٌ﴾ معنى الستر والصيانة المناسب للحياء والعفة، وفي طرفي التشبيه ما يدل على الستر والخفاء، ففي المشبه كلمة ﴿وَعِندَهُمْ﴾ أي: إنَّهنَّ مصونات في كنفهم محميات محفوظات، ووصف البيض بأنه مكنون فيه دلالة على الستر والصيانة، وهذا الستر والخفاء الذي يسكن طرفي التشبيه مناسب لحال عباد الله المخلَصِين؛ إذ الإخلاص أمر خفي لا يطلع عليه إلا علام الغيوب، فهم أتقياء أخفياء، ستروا أعمالهم عن الخلق لشهود جلال الخالق، فكان وصف نسائهم في دار الخلود من جنس ما أحبوه في الدنيا، وهو الستر والخفاء وصيانة أعمالهم وأحوالهم عن شهود المخلوقين، فجاء التشبيه في حاق موقعه، ولو حاولت أن تضع مكانه تشبيه سورة الواقعة ﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ﴾ (الواقعة: ٢٢، ٢٣) لحاولتَ مُحالًا كما كان يقول الإمام عبد القاهر؛ ففى اللؤلؤ – لا سيما المكنون – من البريق واللمعان والظهور ما يبهر، وهذا لا يناسب حال المخلصين الذين يسترون أعمالهم ويستخفون بها عن أعين الرقباء، الذين أخلصوا لله تعالى ولم يملئوا الدنيا ولم يشغلوا الناس.

التشبيه الثاني: تشبيه سورة الرحمن، وسياقه قول الله جل وعلا: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾

(الرحمن: ٤٦ – ٦٠)

السورة كلها تعداد لِنِعم الرحمن على الإنسان مفتتحة بنعمة العلم ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ ومختتمة بما يوصل إليه العلم من الخوف من الله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾، وتمت السورة بوصف ما أعد الله تعالى من النعيم لمن خاف مقام ربه، ولا شك في أن لمجيء التشبيه في سياق تعداد نعم

الرحمن أثرًا في اصطفاء عناصره بما يلائم مقام ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾، ومن معالم ذلك أن الله جل وعلا جمع في المشبه به أمرين «الياقوت والمرجان»؛ لأن من خاف مقام ربه له جنتان لا جنة واحدة، وله ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ لا عين واحدة، وله ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾؛ فجاء المشبه به ﴿ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ من جنس ذلك العطاء المزدوج، ومن فيض ذلك الكرم المضاعف، وبهذا كان التشبيه هنا امتدادًا لسياقه وجزءًا من نسيجه، ولم يرد هذا الازدواج في جانب المشبه به في تشبيه سورتي الصافات والواقعة ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ - ﴿كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ﴾، بل قام المشبه به فيهما على شيء واحد وهو البيض في الأول واللؤلؤ في الثاني، ووصف كل منهما بأنه مكنون، وهذا فرق واضح في صورة المشبه به في التشبيهات الثلاثة. ولإيثار التشبيه بالياقوت والمرجان في سورة الرحمن إلْفٌ بقوله تعالى قبل ذلك: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾.

والمشبه في قوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ الضمير العائد على نساء الجنة، والتشبيه يركز على بياض النساء المشوب بحُمْرة؛ لأن المرجان أحمر، وفي التشبيه بالياقوت دلالة على الصفاء، فصفاؤهن وبياضهن مشوب بحمرة، أما في تشبيه سورة الصافات فركز التشبيه على بياضهن المشوب بصفرة؛ لأن البيض المكنون كذلك، فنساء أهل الجنة لسن على صورة واحدة من الحسن، بل هن في الحسن ألوان وأفانين، ولكل وارث من ورثة جنة النعيم ما تتعشقه نفسه منهن وتصبو إليه.

والتشبيه في سورة الرحمن ينفرد عن التشبيهين الآخرين بأنه يشبه حال النساء وهن على الفرش التي بطائنها من إستبرق، ولم يذكر في سياق هذا التشبيه أن أهل الجنة متقابلون على سررهم يُقبل بعضهم على بعض آخذين بأطراف الأحاديث بينهم؛ لأن هذا الوصف لا يتلاءم مع كونهن على الفرش، وإنما ذُكِرَ هذا التقابل على السرر والإقبال بالحديث في التشبيهين الآخرين، ففي سورة الصافات: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ (الصافات: ٤٣، ٤٤) ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ (الصافات: ٥٠)، وفي سورة الواقعة: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ﴾ (الواقعة: ١٥، ١٦)؛ ولذا لم يذكر فيهما الطمث ولا الفُرُش، وهذا من لطائف الذكر الحكيم.

وأداة التشبيه في آيتي الصافات والرحمن (كأن)، وفيها - كما ذكر البلاغيون - قوة وتأكيد للتشبيه؛ لأن (إنَّ) أم أدوات التوكيد، وفي (كأنَّ) إعلام بالتشبيه في أُنُفِ الكلام؛ لأن المتكلم معها بانٍ كلامه على التشبيه من أول

الأمر بخلاف الكاف، فيكون التشبيه معها بعد بناء الكلام بداية على غير التشبيه[1]، وهذا من الدقائق القارَّة في بطون أسفار البلاغة، وللإمام الرازي عند تفسير آية سورة الرحمن مَلْحَظٌ في توجيه قوة التشبيه بـ (كأن) لم أجده عند غيره، ولم أجده في كتابه (نهاية الإيجاز) لأنه كان معنيًّا فيه بتلخيص كلام الإمام عبد القاهر، ذكر الرازي أن قولنا: (زيد أسد) إذا دخلت عليه أداتا التشبيه الكاف وكأن، كان بينهما فرق من حيث الأثر اللفظي الذي يَحْدُثُ بهما في المشبه به (أسد)، فهو مع (كأن) باقٍ على إعرابه وهو الرفع؛ تقول: (كأن زيدًا أسدٌ)، فلم تُحْدِثْ (كأنَّ) فيه أثرًا لفظيًّا؛ فالأسد متروك على حاله وحقيقته، وزيد يشبهه في تلك الحال، بخلاف الكاف فإنها تُحدِث فيه أثرًا لفظيًّا بتغيير إعرابه من الرفع إلى الجر بكاف التشبيه الداخلة عليه في قولك: (زيد كالأسد)، قال الرازي: «والعمل اللفظي مع العمل المعنوي؛ فكأن الأسد مع كاف التشبيه عُمِلَ به عَمَلٌ ليشبهه زيد، ولا شك في أن زيدًا إذا شُبِّهَ بأسد باقٍ على حاله أقوى مما إذا شُبِّهَ بأسد لم يبق على حاله، وكأن مَن قال: (زيد كالأسد)، نزل الأسد عن درجته فساواه زيد، ومَن قال: (كأن زيدًا الأسد)، رفع زيدًا على درجته حتى ساوى الأسد. قال الرازي: «وهذا تدقيق لطيف»[2].

وهو كلام عالٍ جدًّا، ولم أجده فيما وقفت عليه من كتب البلاغة، إلا أن ما ذكره في التشبيه بالكاف أجد في نفسي منه شيئًا؛ لأنني لا أرى فضلًا في أن يُشْبِهَ زيدٌ أسدًا نزل عن حقيقته ودرجته وأصابه شيء هبط به حتى أدركه زيد في الشجاعة!! وهل يصح أن يُنْظَرَ بمثل هذا الفَهْم إلى ما جاء في الذكر الحكيم من التشبيه بالكاف، كما في قوله جل شأنه: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ (الرحمن: ٢٤) فيقال: إن السفن العوالي الضخام الجارية على صفحات الماء تشبه الأعلام وهي الجبال العالية المرتفعة الضخمة المزالة عن حقيقتها الهابطة عن درجتها التي عُمِلَ بها شيءٌ حتى أشبهتها السفن؟

إن جلال التشبيه في أن تبقى الأعلام على حقيقتها وصفتها الثابتة من الارتفاع والضخامة والصلابة وما يملأ النفس جلالًا ومهابةً عند رؤيتها لِتُشَبَّهَ بها الجواري المنشآت في البحر وهي على صفتها الثابتة وحالها الذي لم يتغير أو يتبدل.

وهلا قال الإمام الرازي في توجيه هذا العمل اللفظي الذي عملته كاف التشبيه في نحو (زيد كالأسد): إن زيدًا لما فاق جنسه في

(١) ينظر عروس الأفراح شرح تلخيص المفتاح للبهاء السبكي ٣/ ٣٩١، ضمن شروح التلخيص، ط دار السرور.

(٢) مفاتيح الغيب ٢٩/ ١٣١، ١٣٢ ط دار الفكر، ط أولى ١٤٠١هـ - ١٩٨١ م.

القوة والشجاعة حتى أدرك الأسد في ذلك، حصل في الأسد ذلك الأثر اللفظي - وهو الجر- إعلامًا بأنه دخل على الأسد في صفته فردٌ من غير جنسه؛ فبقي الجر في الأسد أثرًا باقيًا يدل على ذلك، ومهما يكن فإن هذه التعليقة التي علقتها من كلام الرازي تبقى فكرًا جديدًا في توجيه كون التشبيه بـ (كأن) أقوى وآكد من التشبيه بالكاف؛ لأني لم أجد هذا الكلام في كتب البلاغيين، وهو حقيق بالنظر والتأمل، وهذا الذي وجدت في نفسي منه صوابٌ يحتمل الخطأ، وعسى أن يهتدي غيري فيه إلى ما هو أعلى وأزكى.

والتشبيه الثالث: في سورة الواقعة، وسياقه قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّوۡضُونَةٖ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكۡوَابٖ وَأَبَارِيقَ وَكَأۡسٖ مِّن مَّعِينٖ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنۡهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٞ ﴿٢٢﴾ كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِٕ ٱلۡمَكۡنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ (الواقعة: ١٠ - ٢٤)

السورة في جملتها تفصيل للأصناف الثلاثة التي يكون عليها الناس إذا وقعت الواقعة: السابقون، وأصحاب اليمين، وأصحاب الشمال، وجاء التشبيه فيما أعد الله تعالى للسابقين المقربين في جنات النعيم؛ ولذا كان في تشبيه نسائهم من علو طبقته ما يلائم علو طبقتهم وسبقهم وقربهم من الله سبحانه، وحسبك باللؤلو المكنون صفاء وبهجة للنفس وسرورًا للناظرين، وهذا يلائم صفاء السابقين المقربين ظاهرًا وباطنًا وقولًا وفعلًا وحركةً وسلوكًا، هكذا كانوا في حياتهم الفانية، وبمثله يكون نعيمهم من الحور العين في حياتهم الباقية في الجنة؛ ولذا قال سبحانه بعد التشبيه: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾؛ والجزاء من جنس العمل، وفي التشبيه باللؤلؤ المكنون مناسبة أخرى لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾؛ إذ المقربون من الله جل شأنه يكونون هم وأزواجهم على أكمل صورة، وصفاء اللؤلؤ المكنون يلائم ذلك.

ووُصِفَ نساء أهل الجنة في سورة الواقعة بـ ﴿وَحُورٌ عِينٞ﴾ ولم يوصفن بأنهن ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾؛ لأن الحَوَرَ في عيون واسعات تتلألأ يلائم تشبيههن باللؤلؤ المكنون في الحسن والصفاء.

وقوله: ﴿وَحُورٌ﴾ معطوف على قوله: ﴿وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ﴾ أي يطوف عليهم ولدان مخلدون وحورٌ عين، وفي طواف الولدان المخلدين والحور العين على أهل الجنة مسرة تُسْعِدُ النفس وتُمْتِع العين؛ ولذا ناسبه ذكر الحور بما فيه من جمال ظاهر، ثم ذكر سعة العيون واللؤلؤ المكنون، وهذا كله متاع ظاهر وحسن تراه العين فيملأ النفس روعة؛

لأن النفس تطرب لرؤية الجميل فضلًا عن إطالة النظر إليه.

وسورتا الصافات والواقعة مكيتان؛ ولعل هذا يفسر ذكر الخمر في سياق التشبيه فيهما ضمن نعيم أهل الجنة، فقبل تشبيه سورة الصافات قال الله جل وعلا: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ (الصافات: ٤٥- ٤٧)، وجاء التشبيه بعد ذكر الخمر مباشرة فقال جل وعلا: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ (الصافات: ٤٨، ٤٩)، وقبل تشبيه سورة الواقعة قال ربنا: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ (الواقعة: ١٧- ١٩) ثم جاء التشبيه بعد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ﴾ (الواقعة: ٢٢، ٢٣)، ولما كانت سورة الرحمن مدنية لم يرد في سياق تشبيهها ذكر الخمر، وكأن ذكرها في المكيتين فيه تلطف وإيناس لمن آمن ودخل في دين الله وكان عهده بالخمر ومعاقرتها قريبًا؛ فآنسه الله تعالى بأنه سيبدله في الجنة خيرًا منها؛ ترغيبًا له في نبذ الخمر قبل أن ينزل الأمر الصريح بتحريمها، فشوَّقه إلى خمر الجنة التي تباين في صفتها كل ما ألف في خمر الدنيا من المفاسد والمعاطب، وهذا المسلك في فقه بيان الذكر الحكيم - إن صَحَّ - حقيقٌ أن يُضاف إلى ما ذُكِرَ في تدرُّج القرآن الكريم في تحريم الخمر، فيكون تزهيدهم في خمر الدنيا بإبدالهم خمرًا أفضل منها في الآخرة لا صداع فيها ولا نزيف، هو الخطوة الأولى من خطوات التدرج في تحريم الخمر، والخطوة الثانية أن فيها إثمًا ومنافع للناس، ولكن إثمها أكبر من نفعها ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ (البقرة: ٢١٩)، والخطوة الثالثة هي الباتَّةُ القاطعة في تحريم الخمر بالأمر الإلهي باجتنابها في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (المائدة: ٩٠)، والله تعالى أعلم.

ومما يزيد أواصر القربى بين مسالك البيان في السور المكية في سياق تشبيهي الصافات والواقعة ذلك الجناس اللطيف في الصافات بين ﴿بَيْضَآءَ﴾ في صفة الخمر و﴿بَيْضٌ﴾ في صفة النساء، وبين ﴿مَّعِينٍ﴾ في صفة الخمر و﴿عِينٌ﴾ في صفة النساء في تشبيهي الصافات والواقعة، وهذا يجعل النسب بينهما قريبًا جدًّا، فضلًا عن التشابه البَيِّن في وصف الخمر فيهما.

وتشبيه نساء أهل الجنة في سورتي الصافات والرحمن يقول للنساء المُثْليات الفضليات: عليكن بالعفة والحياء مع الجمال المصون المكنون، واعلمن أن اعتزازكن

بالعفة والحياء قرين اعتزازكن بالحسن والجمال، بل مُقَدَّمٌ عليه؛ لأن التشبيهين قَدَّمَا العفة والحياء على الحسن والجمال، ففي تشبيه سورة الصافات: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ بتقديم قصرهن الطرف عفة وحياءً على كونهن عِينًا جميلات واسعات العيون، وعلى كونهن كالبيض المكنون حسنًا وصفاءً؛ لأن العفة والحياء تُقَدَّمَان على الحسن والجمال، وفي تشبيه سورة الرحمن ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ قدم قصرهن الطرف عِفةً وحياءً على وصفهن بالجمال في تشبيههن بالياقوت والمرجان.

وفي التشبيهات الثلاثة من الرَّوْحِ والراحة والنفاسة والصون ما لا يخفى، فنساء أهل الجنة ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ ﴿كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ﴾؛ ولا شك في أن هذه الجواهر النفيسة من الياقوت والمرجان واللؤلؤ مناسبة للنساء؛ لأنهن يعشقن الحلي والجواهر، وينشأن في الحلية، فهي من الصفات اللائطة بقلوبهن المحببة إلى نفوسهن، والله تعالى أعلم.

